من الدراسات القرآنيـــــــة

أ. د/ على محمود النابى

عميد الكلية

من الدراسات القرآنية

إن الحمد لله ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين أفصح العرب .

وبعـــــد

فإن أشرف غاية ، وأنبل دراسة للغتنا العربية عندما تكون لفهم كتاب الله عز وجل شمس المعارف ، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميـد ، تهدف إلى دراسة النفوس المؤمنة وفى رحاب هذا الكتاب الكريم نشأت الدراسات النحويـة فهو تطبيق عملى للغة السحر والجمال فى أسمى معانيها ، ونظمها ، وأوج عظمتها ومـا أكثر الكتب المرصعة بإعراب القرآن الكريم ومعانيه التى لقيت من أصحابـها كـل عنايـة وتقدير ، تمثلت فى تلك الآثار الطيبة التى ستظل محل فخر وإكبار للأجيال المتعاقبة علـى مر السنين ، وها نحن نعيش وقفات مع آيات من كتاب الله عز وجل علنا نتبين من خلالـها عظمة اللغة وجمالها .

١- قال تعالى : [وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابـها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فأدخلوها خالدين] الزمر (٧٣) .

التوضيـــح :

جاء القرآن الكريم بلفظ السوق للفريقين ، والمراد بسوق أهل النار طردهم إليـها بالهوان ، والعنف ، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبـس أو قتل والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم ؛ لأنهم لا يذهبون إلى الجنة إلا راكبين [يـوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوقَ المجرمين إلـى جـهنم وردا] سـراعا إلـى دار الكرامة والرضوان ، فهناك فرق بين سوق أهل النار ، وسوق أهل الجنة فمساقهم إعـزاز وتشريف [زمراً] متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضـل ، وزمـراً جمـع زمـرة ، والزمرة الجماعة ، واشتقاقها من الزمر وهو الصوت ، لأن الجماعة يكون لها صوت دائماً يقال : زمر يزمر من بابى دخل وضرب أى غنى بالنفخ فى القصب ونحوه وزمراً : حـال حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها

حتى : ابتدائية ، وفى جواب إذا ثلاثة أوجه[١]

أحدها قوله : وفتحت ، والواو زائدة ، وهو رأى الكوفيين ، والأخفش وإنما جئ هنا بالواو دون التى قبلها ، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة ، فتفتح له ، ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فى الآية السابقة بخلاف هذه الآية فإن أبواب السرور والفرح تفتح إنتظاراً لمن يدخلها .

والثانى : أن الجواب قوله ، وقال لهم خزنتها على زيادة الواو أيضاً والثالث : أن الجواب محذوف ، قدره العكبرى : اطمأنوا ونحو ذلك[٢]

وقدره المبرد سعدوا ، وأنشد قول الشاعر :

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

فحذف جواب (لو) / والتقدير لكان أروح .

وقال الزجاج[٣] :

اختلف الناس فى الجواب لقوله حتى إذا جاءوها ، فقال قوم الواو مسقطة[٤] المعنى حتى إذا جاءوها فتحت .

قال أبو إسحاق سمعت محمد بن يزيد يذكر أن الجواب محذوف وأن المعنى حتى إذا جاءوها إلى آخر الآية سعدوا قال فالمعنى فى الجواب حتى إذا كانت هذه الأشياء صاروا إلى السعادة ، وقال قوم حتى إذا جاءوها جاءوها وفتحت أبوابها ، فالمعنى عندهم أن جاءوها محذوف وعلى معنى قول هؤلاء أنه اجتمع المجئ مع الدخول فى حال ، المعنى حتى إذا جاءوها وقع مجيئهم مع فتح أبوابها ، قال أبو إسحاق والذى قلته أنا وهو القول

---

(١) تفسير الفاسمى ١٤ : ٢٢٠ / وأنظر فتح القدير ٤ : ٤٧٨ ، والدر الصون ٦ : ٢٥ .

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٢ : ٢١٦ .

(٣) إعراب القرآن ومعانيه ٤ : ٣٦٣

(٤) أى زائدة تسقط تقديراً .

إن شاء الله تعالى : أن المعنى : حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، دخلوها ، فالجواب دخلوها ، وحذف ؛ لأن فى الكلام دليلاً عليه .

وعلى ما قاله العكبرى والمبرد تكون الجملة من قوله : وفتحت أبوابها فى محل نصب على الحال ، والواو : واو الحال أى جاءوها مفتحة أبوابها .

ولذلك نرى الزمخشرى[١] يقول : (حتى) هى التى تحكى بعدها الجمل ، والجملة المحكية بعدها هى الشرطية إلا أن جزاءها محذوف ، وإنما حذف ؛ لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شئ لا يحيط به الوصف ، وحق موقعه ما بعد خالدين ، وقيل حتى إذا جاءوها جاءوها وفتحت أبوابها ، أى مع فتح أبوابها ، وقيل أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها منها .

وأن أبواب الجنة فمتقدم فتحها بدليل قوله : (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب)[٢]

فلذلك جئ بالواو كأنه قيل حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها .

وزعم بعضهم أن هذه الواو تسمى واو الثمانية لأن أبواب الجنة ثمانية .

قال ابن هشام[٣] :

واو الثمانية ذكرها جماعة من الأدباء كالحريرى ، ومن النحويين الضعفاء كابن خالويه ، ومن المفسرين كالثعلبى ، وزعموا أن العرب إذا عدوا قالوا ستة ، سبعة وثمانية ، إيذاناً بأن السبعة عدد تام ، وأن ما بعدها عدد مستأنف ، واستدلوا على ذلك بآيات :

إحداها : [سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم إلى قوله سبحانه سبعة وثامنهم كلبهم][٤] .

وقيل هى فى ذلك لعطف جملة على جملة إذ التقدير هم سبعة ثم قيل الجميع كلامهم وقيل العطف من كلام الله تعالى .

---

[١] الكشاف ٤ : ١٤٢ .

[٢] ص ٥٠

[٣] المعنى ٤٧٤ بتصرف .

[٤] الكهف آيه ٢٢

والمعنى نعم هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وإن هذا تصديق لهذه المقالة ، كما أن رجماً بالغيب تكذيب لتلك المقالة ويؤيده قول ابن عباس رضى الله عنهما حين جاءت الواو انقطعت العدة أى لم تبق عدة عاد يلتفت إليها وقيل هى واو الحال ، وعلى هذا فيقدر المبتدأ إسم إشارة أى هؤلاء سبعة ليكون فى الكلام ما يعمل فى الحال

ويرد ذلك أن حذف عامل الحال إذا كان معنوياً ممتنع ولهذا ردوا على المبرد قوله فى بيت الفرزدق[١] :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم إذ هم قريش واذ ما مثلهم بشر

إن مثلهم : حال ناصبها خبر محذوف أى وإذا ما فى الوجود بشر مماثل لهم .

الثانية : آية الزمر إذ قيل فتحت فىآية النار ، لأن أبوابها سبعة (وفتحت) فى آية الجنة إذ أبوابها ثمانية ويقول والقول لابن هشام :

وأقول لو كان لواو الثمانية حقيقة لم تكن الآية منها إذا ليس فيها عدد البته ، وإنما فيها ذكر الأبواب وهى جمع لا يدل على عدد خاص ، ثم الواو ليست داخلة عليه بل على جملة هو فيها ،وقد قيل أن الواو فى " وفتحت " مقحمة عند قوم ، وعاطفة عند قوم آخرين ، وقيل هى واو الحال أى جاءوها مفتحة أبوابها فمفتحة حال من جنات وهذا قول المبرد والفارسى وجماعة .

قال النحاس[٢] :

وفى قصة أهل الجنة ، وفتحت بالواو فالكوفيون يقولون : الواو زائدة ، وهذا خطأ عند البصريين ؛ لأنها تفيد معنى وهى العطف ههنا والجواب محذوف . قال محمد بن يزيد أى سعدوا ، وحذف الجواب بليغ فى كلام العرب وأنشد :[٣]

فلو أنها نفس نموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

---

[١] فى مدح الفرزدق لعمر بن عبد العزيز حين ولى المنورة .

[٢] إعراب القرآن للنحاس ٤ : ٢٢

[٣] الشاهد لامرئ القيس الديوان ١٠٧

فحذف جواب (لو) ، والتقدير لكان أروح ، فأما الحكمة فى إثبات الواو فى الثانى وحذفها من الأول ، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم يقول : لا أعلم أنه سبقه إليه أحد وهو أنه قال لما قال الله جل وعز فى أهل النار [حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها] دل بهذا على أنها كانت مغلقة ، ولما قال فى أهل الجنة [حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها] دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيؤها والله جل وعز أعلم .

قال سيبويه :[١]

وسألت الخليل عند قوله جل ذكره [حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها] أين جوابها ، وعن قوله جل وعلا [ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب][٢] [ولو ترى إذ وقفوا على النار][٣] فقال : إن العرب قد تركت فى مثل هذا الخبر (الجواب) فى كلامهم لعلم المخبر لأى شئ وضع هذا الكلام ، وزعم أنه قد وجد فى أشعار العرب ورب لا جواب لها من ذلك قول الشماخ[٤]

ودويـة قفـر تمشـى نعامـها كمشى النصارى فى خفـاف الأرنـدج

وهذه القصيدة التى فيها هذا البيت لم يجئ فيها جواب لرب لعلم المخاطب أنه يريد قطعتها ، وما فيه هذا المعنى .

قال مكى :[٥]

وفتحت : قيل الواو زائدة ، وفتحت : جواب إذا ، وقيل الواو تدل على فتح أبواب الجنة قيل إتيان الذين أتقوا إليها والجواب محذوف أى حتى إذا جاءوها آمنوا ، وقيل الجواب وقال لهم خزنتها ، والواو زائدة ، [وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فأدخلوها خالدين] .

---

[١] الكتاب ٣ : ١٠٣

[٢] البقرة ١٦٥

[٣] الأنعام ٢٧

[٤] الأرندج : الجلد الأسود ، تمشى : تكثر المشى شبه أسوق النعام فى سوادها بخفاف الأرندج وخص النصارى ؛ لأنهم كانوا معروفين بلبسها ، والشاهد فيه حذف جواب رب لعلم السامع والمعنى رب دوية قطعت أو نحو ذلك ، قال المحقق للكتاب وقد رد على ما نقله سيبويه عن الخليل من تأوله من حذف الجواب بأن بعد البيت

قطعت إلى معروفها سكراتها وقد خب آل الأمعز المتوهج

[٥] مشكل إعراب القرآن ٢: ٦٣٣

الواو : عاطفة ، وقال لهم خزنتها : فعل وفاعل ، سلام : مبتدأ وسوغ الابتداء دلالة النكرة على الدعاء .

عليكم : خبره ، طبتم : فعل وفاعل ، فأدخلوها : الفاء تعليلية ، أدخلوها : فعل وفاعل ومفعول ، خالدين : حال يتلخص مما سبق .

أن المراد بسوق الكفار الطرد والهوان ، وسوق أهل الجنة الإعزاز والتشريف والسرور والفرح انتظاراً لمن يدخلها .

أما جواب (إذا) ففيه آراء نوجزها فيما يلى :

١ــ وفتحت ، والواو زائدة ، وهو رأى الكوفيين والأخفش .

٢ــ أن الجواب وقال لهم خزنتها على زيادة الواو أى حتى إذا جاءوها قال لهم خزنتها .

٣ــ أن الجواب محذوف ، ورأى الزمخشرى أن يقدر بعد خالدين يعنى أنه يجئ بعد متعلقات الشرط ، وما عطف عليه ، والتقدير : اطمأنوا وكذلك قدر العكبرى وقدره المبرد : سعدوا ، وقدر بعضهم المحذوف جاءوها ليكون المعنى وقوع المجئ مع فتح الأبواب ، وقال بعضهم حذف جواب (إذا) لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شئ لا يحيط به الوصف وحق موقعه بعد خالدين .

والجملة بعد تقدير الجواب للحال على أن الواو للحال ورأى بعضهم أنها عاطفة ، أو زائدة

ويرى فريق آخر كالحريرى وابن خالويه والثعلبى كما قال ابن هشام أو الواو واو الثمانية لأن أبواب الجنة ثمانية ، ولأن العرب إذا عدوا قالوا ستة ، سبعة ، وثمانية إيذانا بأن السبعة عدد تام ، وأن ما بعدها عدد مستأنف ، واستدلوا على ذلك بآيات كثيرة منها هذه الآية وآية الكهف سيقولون ثلاثة ... إلى قوله تعالى سبعة وثامنهم كلبهم ويؤيده قول ابن عباس رضى الله عنهما حين جاءت الواو انقطعت العدة أى لم تبقى عدة عاد يلتفت إليها هذا والله أعلم .

٢ــ قال تعالى [يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد] الحج .

التوضيح :

قال تعالى [يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت]

تذهل : تسلو وتنسى[١] .

قال كثير عزة :

صحا قلبه يا عز أو كاد يذهل[٢] وأضحى يريد الصوم أو يتدلل

ترونها : في هذا الضمير قولان[٣] :

أنه ضمير الزلزلة ؛ لأنها المحدث عنها ، ويؤيده أيضا قوله [تذهل كل مرضعة]

والثاني : أنه يكون ضمير الساعة فعلى الأول يكون الذهول والوضع حقيقة ، لأنه في الدنيا وعلى الثاني يكون على سبيل التعظيم والتهويل ، وأنها بهذه الحيثية إذ المراد بالساعة القيامة وهو كقوله : [يوما يجعل الولدان شيبا][٤]

تذهل : الذهول الاشتغال عن الشئ وهو في محل نصب على الحال من هاء ترونها والرؤية بصرية وهذا إنما يجئ على غير الوجه الأول وأما الوجه الأول وهو أن تذهل ناصبها [ليوم ترونها] فلا محل للجملة من الإعراب ، لأنها مستأنفة ، أو يكون محلها النصب على الحال من الزلزلة ، أو من الضمير في عظيم ، وإن كان مذكرا لأنها هو الزلزلة في المعنى أو من الساعة ، وإن كانت مضافا إليها لأنها إما فاعل أو مفعول وإذا جعلناها حالا فلابد من ضمير محذوف تقديره تذهل منها وقرئ [تذهل] بضم التاء وكسر الهاء ، ونصب كل على المفعولية ويقول والحديث للسمين يحكى عن الزمخشري[٥] .

---

[١] مجاز القرآن لابي عبيدة ٢ : ٤٤

[٢] يصحو ويسلو

[٣] الدر المصون ٥ : ١٢١ بتصرف

[٤] المزمل ١٧

[٥] الدر المصون ٥ : ١٢١ ، والكشاف ٣ : ١٣٩

فإن قلت لم قيل مرضعة دون مرضع قلت المرضعة التى هى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى ، والمرضع من شأنها أن ترضع ، وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به ، والمعنى : أن من شدة الهول تذهل هذه عن ولدها فكيف بغيرها ، وقال بعض الكوفيين : المرضعة تقال للأم ، والمرضع تقال للمستأجرة غير الأم ، وهذا مردود بقوله :

كمرضعة أولاد أخرى وضيعت بنى بطنها هذا الضلال عن القصد

فأطلق المرضعة بالتاء على غير الأم ، وقول العرب مرضعة يرد أيضاً قول الكوفيين إن الصفات المختصة بالمؤنث لا تلحقها تاء التأنيث نحو : حائض وطالق فالذى يقال : إن قصد النسب فى الأمر على ما ذكر ، وإن قصد الدلالة على التلبس بالفعل وجبت التاء فيقال : حائضه وطالقه وطامثة قال النيسابورى[1] : تصوير لهول الزلزلة كأنه بلغ مبلغاً لو لقمت المرضعة الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الخوف .

قال الزمخشرى[2] فى قوله تعالى [عما أرضعت] عن إرضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل ، وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل ما فى بطنها لغير تمام .

أى أنه يجوز فى (ما)أن تكون مصدرية ، ولا حاجة إلى تقدير حذف على هذا ، بخلاف ما إذا جعلت موصولة فالعائد محذوف أى عن الذى أرضعته وهو الطفل .

[وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد]

الحمل بالفتح : ما كان فى بطن ،أو على رأس شجرة ، وبالكسر ما كان على ظهر[3] قال فى الصحاح يقال امرأة حاملة وحاملة إذا كانت حبلى فمن قال حامل قال هذا نعت ، ومن قال حاملة بناه على حملت فهى حاملة وانشد لعمرو بن حسان :

تمخضت المنون له بيوم أتى ولكل حاملة تمام

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ٥ : ٦٣

(٢) الكشاف ٣ : ١٣٩

(٣) اللسان حمل٢ : ١٠٠٢

وقال : كل ذات حمل دون كل حامل ليكون نصاً فى موضع الجنين وذهول المرضعة ، ووضع ذات الحمل حملها : يحتمل أن يكون على جهة التمثيل .

(وترى الناس) قرأ حمزة[١] والكسائى [وما هم بسكرى] بغير ألف على فعلى ، وقرأ الباقون سكارى على فعالى وهما جميعاً جمعان لسكران وسكرانة .

وقال أبو زيد هى لغتان تقول العرب مريض ومراضى ومريض ومرضى .

فحجة من أختار (سكرى) قال لأن السكر آفة داخلة على الإنسان كالمرض والهلاك فقالوا سكرى مثل هلكى ، ومن قرأ (سكارى) بألف فحجته أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ (سكارى وما هم بسكارى) .

فإن سأل سائل فقال إخبار الله تعالى لا يقع فيه خلاف فلم قال(وترى الناس سكارى) فأوجب ثم قال : (وما هم بسكارى) فنفى.

فالجواب فى ذلك : أن تأويله : وترى الناس سكارى خوفاً من العذاب وهو المطلع ، وما هم بسكارى من الشراب .

وقرأ أبو هريرة وأبو زرعة بن عمرو بن حزم وعلى (وترى الناس) بضم التاء ، وقرأ أبو نهيك (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) بفتح السين بالألف .

وقرأ[٢] زيد بن على بضم التاء وكسر الراء على أن الفاعل ضمير الزلزلة أو الساعة ،وعلى هذه القراءة فلابد من مفعول أول محذوف ليتم المعنى به أى وترى الزلزلة أو الساعة الخلق الناس سكارى .

ويؤيد هذا قراءة أبى هريرة وأبى زرعة وأبى نهيك (ترى الناس) بضم التاء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله ونصب الناس بنوه من المتعدى لثلاثة :

فالأول : قام مقام الفاعل وهو ضمير الخطاب ، والناس سكارى هم الأول والثانى ، ويجوز أن يكون متعديا لأثنين فقط على معنى وترى الزلزلة ، أو الساعة الناس قوماً سكارى

---

[١] إعراب القراءات السبع وعلها لابن خلويه تحقيق عبد الرحمن العثيمن ٢ : ٧٢

[٢] الدر المصون للسمين ٥ : ١٢٢

فالناس هو الأول وسكارى هو الثانى ، وقرأ الزعفرانى وعباس فى اختياره (وترى) كقراءة أبى هريرة إلا أنهما رفعا الناس على أنهم مفعول لم يسم فاعله ، والتأنيث فى الفعل على تأويلهم بالجماعة ، وقرأ الأخوان (سكرى) وما هم بسكرى على وزن صفة المؤنث بذلك وظاهر كلام سيبويه[١] أنه جمع تكثير فإنه قال وقوم يقولون سكرى جعلوا مثل مرضى ، لأنهم شيئان يدخلان على الإنسان ثم جعلوه روبى[٢] مثل سكرى وهما المستثقلون نوما من شرب الرائب وقال الفارس : ويصح أن يكون جمع سكر كزمن وزمنى وقد حكى رجل سكر بمعنى سكران فيجئ سكرى حينئذ لتأنيث الجمع قلت ومن ورود سكرى بمعنى سكران قوله :

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلنى ثوبى فأنهض نهض الشارب السكر

وكنت أمشى على رجلين معتدلا فصرت أمشى على أخرى من الشجر

ويروى البيت الأول : للشارب الثمل .

والإعراب زيادة على ما سبق وتأكيدا لما سبق نقول :

يوم ترونها : الظرف متعلق بتذهل وأجازوا فيها أوجها أخرى منها أن يكون متعلقا بعظيم أو باذكر مقدرة ،أو أنه بدل اشتمال من زلزلة ، لأن كل من الحدث والزمان يصدق عليه أنه مشتمل على الآخر (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) تشبيه بليغ شبه الناس فى ذلك اليوم العصيب بحالة السكارى الذين فقدوا التمييز ، وأضاعوا الرشد .

يتلخص مما سبق :

أن معنى (تذهل) تسلو وتنسى ، والضمير فى ترونها يعود على الزلزلة ، أو الساعة ، وعلى الأول يكون الذهول حقيقة ، وعلى الثانى يكون على سبيل التعظيم والتهويل. و (تذهل) موقعه من الإعراب : حال من الهاء من ترونها ، والرؤية بصرية ، أو أن يوم ترونها ظرف لتذهل ، وعلى ذلك فلا محل للجملة من الإعراب ، لأنها مستأنفة ،

---

[١] الكتاب ٢ : ٢١٢ ، ٢١٤

[٢] قال فى اللسان ٣ :١٧٧٢ (روب) راب الرجل ورءوبا : تحير وفترت نفسه من شبع أو نعاس ، وقيل سكر من النوم وقيل إذا قام من النوم حائر البدن والنفس ، ورجل رائب وأروب ، وروبان ، والأنثى رائبة

أو تكون منصوبة على الحال من الزلزلة ، أو من الضمير فى عظيم ،وقرئ تذهل بضم التاء وكسر الهاء ، ونصب كل على المفعولية .

وعرفنا لماذا قال تعالى : [يوم ترونها تذهل كل مرضعة] ، لأن المرضعة بالتاء التى هى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى ، والمرضع من شأنها الإرضاع باستثناء قول بعض الكوفيين .

وعما أرضعت الواو يحتمل أن تكون مصدرية أو موصولية وقال كل ذات حمل حملها ، والحمل بالفتح ما كان فى البطن أو على الشجرة ، والحمل بالكسر ما كان على ظهر .

وترى الناس سكارى : تبيين من خلال العرض التوجيه الإعرابى للقراءات القرآنية .

٣ــ قال تعالى [ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون ،وإنك لعلى خلق عظيم] ن من ١ : ٤

التوضيح :

(ن) بالسكون على الوقف : اسم للحرف المعروف ، قصد به التحدى أو اسم للسورة ، قال الزجاج[١] : أو الحوت التى دحيت عليها سبع الأرضين ، أو الدواة ، وجاء فى التفسير أن أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب ، فقال : أى رب وما أكتب ؟ قال : القدر فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة .

ن : منصوب با ذكر ، أو مرفوع خبر لمحذوف (والقلم) أى الذى يخط به (وما يسطرون أى يكتبون ، و (ما) مصدرية ، أو موصولة وما أنت بنعمة ربك بمجنون : المعنى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك كما تقول أنت بنعمة الله فهمَ ، وما أنت بنعمة الله جاهل وتأويله : فارقك الجهل بنعمة الله وهذا جواب لقولهم [وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون][٢] .

[وإن لك لأجر غير ممنون] أى ثوابا على أذى المشركين ، واحتمال هذا الطعن ، والصبر عليه ، غير ممنون : أى غير منقوص ولا مقطوع .

---

[١] معانى القرآن وإعرابه ٥ : ٢٠٤

[٢] الحجر ٦

قال ابن جرير[١] : من قولهم (حبل متين) إذا كان ضعيفا وقد ضعفت منته أى قوتـه ، أو غير ممنون به عليك زيادة فى العناية به صلى الله عليه وسلم ، والتنويه بمقامه .

وإعراب ما أنت بنعمة ربك بمجنون ما : نافية ، وأنت : اسمها ، وبمجنون خبرها مجرور لفظا منصوب محلا . والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب القسم .

[وإن لك لأجرا غير ممنون] الواو : حرف عطف ، والجملة وما بعدها عطف على جملة جواب القسم ، فهى من جملة المقسم عليه .

إن: حرف توكيد ونصب ، لك خبرها المقدم ، واللام للمزحلقة وأجرا : اسمها ، وغير ممنون نعت .

وهنا وقفة :

جمهور النحاة يمنعون تعليق الجار والمجرور بحروف المعانى ، وأجازه بعضهم ، وفصل البعض الآخر فقال :

إن كان نائبا عن فعل حذف جاز.ذلك على سبيل النيابة لا لأصالة وإلا فلا ، قال ابن هشام[٢] فى المغنى : ومن ذلك قوله تعالى [ما أنت بنعمة ربك بمجنون] الباء متعلقة بالنفى إذ لو علقت بمجنون لأفاد نفى جنون خاص ، وهو الجنون الذى يكون من نعمة الله تعالى ، وليس فى الوجود جنون هو نعمة ، ولا المراد نفى جنون خاص ويقول : هو كلام بديع إلا أن جمهور النحويين لا يوافقون على صحة التعلق بالحرف ، فينبغى على قولهم أن يقدر أن التعلق بفعل دل عليه النافى أى انتفى ذلك بنعمة ربك ، وقد ذكرت فى شرحى لقصدية كعب بن زهير عند الكلام على قوله :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

إن المختار تعلق الظرف بمعنى التشبيه الذى تضمنه البيت وذلك على الأصل وما كسعاد إلا ظبى أغن على التشبيه المعكوس للمبالغة لئلا يكون الظرف متقدما فى التقدير على اللفظ الحامل لمعنى التشبيه ، وإذا جاز لحرف التشبيه أن يعمل فى الحال فى نحو قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

---

[١] جزء ٢٩ : ١٨

[٢] المغنى ٥٧٣

مع أن الحال شبيهة بالمفعول به ، فعمله فى الظرف أجدر .

[وإنك لعلى خلق عظيم]

الخلق : قيل هو الإسلام والدين ، وقيل هو القرآن ، أو ما كان يأتمر به من أمر الله ، وينتهى عنه من نهى الله .

قال الزجاج : المعنى أنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن أو إنك على طبع كريم .

وحقيقة الخلق فى اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب ، وقد ثبت فى الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبى صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن أى كان متمسكا به ، وبآدابه ، وأوامره ، ونواهيه[1] . وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف .

ولعلى : إشارة إلى أنه على أحسن الأخلاق الفاضلة ، وهذه الجملة والتى قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم ، واللام فى لعلى للمزحلقة ، على خلق :خبر إن وعظيم صفة .

وإذا قلنا فلان لا أخلاق له هذا أسلوب خطأ والصواب : فلان سيئ الأخلاق ،لأنه لا يوجد إنسان ليس فيه أخلاق حسنة وسيئة .

قال الشاعر :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

والخلق : العادة ، والعادة تكون حسنة ، وقد تكون سيئة وجاء فى التاج : الخلق : السجية وهو ما خلق عليه من الطبع .

وقال ابن الإعرابي الخلق : المروءة ، والخلق : الدين ومن هذا القبيل الآية الكريمة ، والحديث الشريف " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "

وجاء فى الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير للسيوطى عن ابن عمر رضى الله عنه : سوء الخلق شؤم ، وعن عائشة رضى الله عنها سوء الخلق شئم ، وشراركم أسوؤكم خلقا وعن ابن عمر سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

---

[1] غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦ : ٣٣٥

وعن ابن عمر خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فأما اللذان يحبهما الله فالسخاء والسماحة ، وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل وعن عائشة رضى الله عنها أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن ألست تقرأ القرآن [قد أفلح المؤمنون][1] .

قال الرصافى

هى الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات

وقول شوقى

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فكلمة الخلق إذا جاءت غير موصوفة فإنما تعنى الدين والمروءة أو الصفات الحسنة فى الإنسان إذا كانت هناك قرينة تدل على ذلك ، وتأتى الأخلاق جمعا لخلق وهو البالى ويصفون به الواحد نحو : ثوب أخلاق .

أما الخلاق فهو ما أكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه نحو قوله تعالى [ما له فى الآخرة من خلاق][2] ويقال له خلاق أى له حظ وافر من الخير والصلاح ، ولا خلاق له أى لا رغبة له فى الخير ، ولا صلاح فى الدين والنسب على ذلك خلقية على المفرد ، وهذا رأى البصريين أما الكوفيون فينسبون ويقولون أخلاقية على الجمع وحجة الكوفيين أن السماع الكثير يؤيد دعواهم وقد ارتضى المجمع اللغوى بالقاهرة رأى الكوفيين حيث قال : إن النسبة إلى الجمع قد تكون فى بعض الأحيان أبين ، وأدق فى التعبير عن المراد بالنسبة إلى المفرد

يتخلص مما سبق :

أن الحرف (ن) المقصود منه الحرف المعروف للتحدى ، أو اسم للسورة ، أو الحوت التى دحيت عليها سبع الأرضين ، أو الدواة ، وأقسم بالقلم الذى علم بالقلم ، ما

---

(١) أخرجه مسلم من رواية زرارة بن أبى أدنى عن سعد بن هشام عنه وأخرجه الحاكم .

(٢) البقرة ٢٠٠

أنت بنعمة ربك بمجنون ، أى انتفى الجنون بنعمة ربك [وإن لك لأجرا غير ممنـــون] أى ثوابا على أذى المشركين غير مقطوع ، وأعربت تلك الآيات ، ثم انتقل الحديث إلى تعليـق الجار والمجرور بحروف المعانى فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازه ، ومنهم مـــن فصـل وبينت رأى ابن هشام

ومعنى الخلق هل هو الإسلام ، أو الدين ، أو القرآن ، أو ما يأتمر بأمر الله تعالى ، ومـــا ينتهى عنه ، أو المروءة ، والخلق إذا جاءت غير موصوفة فإنما تعنى الدين والمـــروءة ، أو الصفات الحسنة فى الإنسان إذا كانت هناك قرينة تدل على ذلك والمعنى أنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن ، أو على طبع كريم ولعلى : إشارة إلى أنـــه علـــى أحســن الأخلاق

وهناك فرق بين قولنا : فلان لا أخلاق له فهذا أسلوب خطأ ، والصواب فلان سئ الأخـــلاق لأن الخلق عادة قد تكون حسنة وقد تكون سيئة .

أما الخلاق فهو ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه ، ويقال له خـــلاق أى حـظ وافر من الخير والصلاح ، ولا خلاق له أى لا رغبة له فى الخير ، ولا صلاح فى الدين .

وينسب إلى ذلك اللفظ على المفرد ، أو على الجمع على الخلاف بيـــن البصريـــن والكوفيين والله أعلم .

٤ــ قال تعالى : [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إلـــه إلا هو العزيز الحكيم] آل عمران ١٨

التوضيـــــح :

شهد الله : أى قضى الله أنه لا إله إلا هو والملائكة شَهود على ذلك[١] وقال القاسمى : بأى علم وأخبر ، أو قال بين أنه لا معبود حقيقى سوى ذاتـــه العليـــة ، وشـــهد بذلـــك ، والملائكة وأولوا العلم[٢] بالإقرار وهذه مرتبة جليلة للعلماء ، لقرنهم فى التوحيد بالملائكـة المشرفين بعطفهم على اسم الله عز وجل .

---

[١] مجاز القرآن ١ : ٨٩

[٢] قيل هم الأنبياء ، أو المهاجرون والأنصار قال ابن كيسان ، أو المؤمنون كلهم قال السدى والكلبـــى هـــو الحق إذ لا وجه للتخصيص بمؤمنى أهل الكتاب .

(قائما بالقسط) : أى بالعدل فى أحكامه .

(لا إله إلا هو العزيز الحكيم) كرره تأكيدا ، وليبنى عليه قوله العزيز فلا يرام جنابة عظمة ، (الحكيم) فلا يصدر عنه شئ وإلا على وفق الاستقامة ، وقيل كرر لإطالة الكلام فجدد التوحيد تلو التنزيه ليبنى عليه قوله :[إن الدين عند الله الإسلام] .

ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمتقطع فى الفهم مما أريد إيصاله به .فإن قيل لم شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو

قال بعض العارفين (الشعرانى) لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له ، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه وعطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ، لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلا من النظر فى الأدلة كالبشر وإنما كان علمهم بذلك حاصلا من التجلى الإلهى ، وذلك أقوم العلوم وأصدقها ، فلذلك قدموا فى الذكر على أولى العلم ، وأيضا فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله ، فناسب ذكرهم فى الوسط فاعلم ذلك[١] .

قال الزجاج[٢] : القسط فى اللغة العدل قال الله تعالى [وأقيموا الوزن بالقسط][٣] أى بالعدل ويقال : اقسط الرجل إذا عدل ، وقسط إذا جار ، والعادل مقسط ، والجائز قاسط قال الله : [وأقسطوا إن الله يحب المقسطين][٤] أى اعدلوا إن الله يحب العادلين وقال : [وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا][٥] .

فإن قال قائل فمن أين جاء من لفظ القسط ، ما معناه الجور وأصله العدل ؟ فإنما ذلك كقولك عدل الرجل على القوم يعدل عدلا ومعدلة ومعتدلة إذا هو أنصفهم ، وعدل عن الحق عدلا إذا جار . فكذلك جاء من لفظ القسط ما معناه الجور كما جاء ما معناه العدل .

العزيز الحكيم من رد العجز على الصدر ، فقد رد العزيز إلى تفرده بالوحدانية ، التى تقتضى العزة ، ورد الحكيم إلى العدل الذى هو القسط ، فهو تعالى حكيم لا يتخيفه جور أو انحراف .

---

[١] تفسير القاسمى ج ٤: ٦٦

[٢] معانى القرآن وإعرابه ١ : ٣٨٨

[٣] الرحمن ٩

[٤] الحجرات ٩

[٥] الجن ١٥

الإعـــــراب :

شهد الله : فعل وفاعل ، والجملة مستأنفة ، مسوقة لتعداد فضائل الدين وأصوله .

(أنه لا إله إلا هو) أن وما بعدها فى موضع نصب بنزع الخافض أى بأنه .

قائما : حال لازمة من الله ، أو من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا ولعله أولى .

وجاز مجئ الحال بعد معطوفين لأمن الالتباس فلو لم يؤمن الالتباس لم يجز مجـــئ الحال نحو : جاء على وخالد ضاحكا : لعدم العلم بمن هو الضاحك ، وواضـــــح أن القيـــام بالقسط من خصائص الله تعالى فيكون بمثابة التتمة لكمال الأفعال بعد كمال الذات .

و (قائما) كما قلنا حال والأصل فى الحال أن تكون متنقلة لا ثابتة ، وتقع وصفا ثابتا فـــى ثلاث مسائل[١] :

١ــ أن تكون مؤكدة لمضمون الجملة نحو : [ويوم أبعث حيا][٢] .

٢ ــ أن يدل عاملها على تجدد صاحبها نحو : خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليـــها ، فيديها : بدل بعض ، وأطول حال ملازمة .

٣ــ ما كان موقوفا على السماع نحو قوله تعالى : [قائما بالقسط] ونحو : [أنزل إليكـــم الكتاب مفصلا][٣] ، ولا ضابط لذلك والتمثيل بتلك الآية ، لأن (مفصلا) للحال التى تجـــدد صاحبها .

وبعضهم أعرب قائما بالنصب على المدح كما فى قول امرئ القيس

إذا قلـــت هـــاتى نولينـــى تمـــايلت على هضيم الكشح ريـــــا المخلخـــل

---

[١] أوضح المسالك ٢ : ٢٩٧

[٢] مريم ٢٣

[٣] الأنعام ١١٤

فهضيم : منصوب على المدح لا حال لأنها صفة لازمة .

يتلخص مما سبق :

أن معنى شهد الله أى قضى ، أو علم ، وأخبر ، أو قال أو بين وكرر قوله تعالى لا إله إلا هو ليبنى عليه قوله العزيز فلا يرام جنابة عظمة الحكيم ، فلا يصدر عنه شئ إلا على وفق الاستقامة ، وكرر لا إله إلا هو لإطالة الكلام مجدد التوحيد تلو التنزيه ، وشهد الحق تعالى لنفسه ليثبت لعباده أنه غنى عن توحيدهم له ، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه ، وعطف الملائكة ؛ لأن علمهم حاصل من التجلى الإلهى .

وأقسط معناه عدل ، وقسط معناه جار .

واسم الفاعل من أقسط مقسط بمعنى عادل واسم الفاعل من قسط ، قاسط بمعنى ظالم وجائر .

العزيز الحكيم :

رد العزيز إلى تفرده بالوحدانية التى تقتضى العزة ورد الحكيم إلى العدل الذى هو القسط فهو تعالى حكيم لا يتحيفه جور أو انحراف .

والعزيز الحكيم : خبران لمبتدأ محذوف تقديره هو ، ولك أن تقربها بدلين من (هو) .

والآية التى بعد ذلك من سورة الرحمن وسميت فى حديث أخرجه البيهقى عن على كرم الله وجهه مرفوعا (عروس القرآن) وعن ابن عباس أنها مدنية سوى قوله تعالى [يسأله من فى السموات] الآية تكرر فيها قوله تعالى [فبأى آلاء ربكما تكذبان] إحدى وثلاثين مرة فكل واحدة تتعلق بما قبلها فإلى الآيات .

٥ــ قال تعالى :

[كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن] الرحمن ٢٦ : ٢٩

التوضيح :

(كل من عليها فان) أى على الأرض التى وضعت للأنام من الحيوانات والمركبات ، و (من) للتغليب ، أو للثقلين ، (فان) هالك (ويبقى وجه ربك) أى ذاته عز وجل ،

والمراد هو سبحانه وتعالى فالإضافة بيانية ، وحقيقة الوجه فى الشاهد الجارحة ، واستعماله فى الذات مجاز مرسل كاستعمال الأيدى فى الأنفس ، وهو مجاز شائع ، وقيل أصله الجهة واستعماله فى الذات من باب الكناية ، وتفسيره بالذات هنا مبنى على مذهب الخلف القائلين بالتأويل ، وتعيين المراد فى مثل ذلك دون مذهب الخلف[١] .

قال أبو حيان[٢] : (وجه ربك) للرسول ، وفيه تشريف عظيم له صلى الله عليه وسلم ، وقيل الخطاب لكل سامع ، ومعنى ذو الجلال الذى يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ، وعن أفعالهم ، أو الذى يتعجب من جلاله ، أو الذى عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده .

وقال القاسمى[٣] :

[كل من عليها فان] أى من على ظهر الأرض هالك [ويبقى وجه ربك] أى ذاته الكريمة (ذو الجلال) أى العظمة والعلو والكبرياء (والإكرام) أى التفضل العام ، وهذه الآية كآية [كل شئ هالك إلا وجه][٤] .

ولما كان فناء الخلق سببا لبعثهم للنشأة الأخرى التى يظهر بها المحق من المبطل ، وينقلب الأول بالثواب ، ويبوء الآخر بالعقاب ، وذلك من أعظم النعم يشمل فيها العدل الإلهى المكلفين قال سبحانه : [فبأى آلاء ربكما تكذبان] .

وقد أشار الرازى إلى ما فى قوله تعالى [كل من عليها فان] من الفوائد بقوله فيه فوائد :

منها : الحث على العبادة وصرف الزمان اليسير إلى الطاعة .

ومنها : المنع من الوثوق بما يكون للمرء فلا يقول ــ إذا كان فى نعمة ــ إنها لن تذهب ، فيترك الرجوع إلى الله ، معتمدا على ماله وملكه .

ومنها : الأمر بالصبر إذا كان فى ضر ، فلا يكفر بالله معتمدا على أن الأمر ذاهب ، والضر زائل .

---

[١] روح المعانى ج ٢٧ : ١٠٨

[٢] البحر المحيط ٨ : ١٩١

[٣] تفسير القاسمى ١٥ : ٢٨٨

[٤] القصص ٨٨

ومنها : ترك اتخاذ الغير معبودا ، والزجر على الاغترار بالقرب من الملوك ، وترك التقرب إلى الله تعالى فإن أمرهم إلى الزوال قريب .

ومنها : حسن التوحيد ، وترك الشرك الظاهر والخفى جميعا ، لأن الفانى لا يصلح لأن يعبد وفى تلك الآية الكريمة تتجلى البلاغة العربية فى أسمى معانيها حيث جمع سبحانه بين التعزية والفخر إذ عزى جميع المخلوقات ، وتمدح بالانفراد بالبقاء ، بعد فناء الموجودات مع وصفه ذاته بعد انفراده بالبقاء بالجلال والإكرام ..

(يسأله) من فى السموات من الملائكة ، ومن فى الأرض من الثقلين

(يسأله) من فى السموات الرحمة ، ومن فى الأرض المغفرة والرزق [كل يوم هو فى شأن]

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك الشأن فقال : من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين ، وهذا بالنسبة إلى المعطيات ، ولا تغير فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله وبالجملة إنها شئون يبديها لا شئون يبتديها .

قال السمين[1] :

يسأله فيها وجهان :

أحدهما : هو مستأنف .

والثانى : أنه حال من وجه ، والعامل فيه يبقى أى يبقى مسئولا من أهل السموات والأرض

(كل يوم) منصوب بالاستقرار الذى تضمنه الخبر ، وهو قوله فى شأن ، والشأن : الأمر

أما كل بالضم فيكون إعراب كل فاعلا حذف فعله لكثرة الاستعمال والتقدير : يقبل كل عام وأنتم بخير .

---

[1] الدر المصون ٦ : ٢٤٢

كما يجوز أن تكون كل مبتدأ حذف خبره ، والتقدير : حينئذ كل عام مقبل وأنتم بخير . وفى كلتا الحالتين تكون الواو حالية ، والجملة بعدها حالاً .

قال الشوكانى[١] :

انتصاب كل بالاستقرار الذى تضمنه الخبر ، والتقدير استقر سبحانه فى شأن كل وقت من الأوقات . واليوم عبارة عن الوقت ، والشأن هو الأمر .

ومن جملة شئونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبونه على اختلاف حاجاتهم ، وتباين أغراضهم ، قال المفسرون من شأنه أنه يحيى ويميت ويرزق ويغفر ، ويعز ويذل ، ويمرض ويشفى ويعطى ويمنع ويغفر ويعاقب إلى غير ذلك .

الإعـــراب :

[كل من عليها فان] كل مبتدأ ، من اسم موصول فى محل جر بالإضافة

(عليها) متعلق بمحذوف لا محل له من الإعراب صلة الموصول و (فان) خبر كل حذفت الياء لالتقاء الساكنين .

[ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام] الواو : عاطفة .

ويبقى : مضارع ، ووجه ربك فاعل ومضاف إليه وذو الجلال : صفة لوجه .

[يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن] كلام مستأنف للشروع فى تعدد آلاء أخرى من آلائه سبحانه ، أو تكون الجملة حالاً ، والعامل فيه يبقى أى يبقى حال كونه مسئولاً من أهل السموات والأرض و (من) اسم موصول فاعل يسأله وكل يوم تقدم إعرابها . والله أعلم .

---

[١] فتح القدير ٥ : ١٣٦